في الهزيمتين

من مذكرات الاستاذ محمد كرد علي

« وهي تعد الآن للنشر »

من أجمل الذكريات ذِكرياتُ الصبا وما فيه من مرَح ومغامرات ، وما يتخللها من توفيق وخيبة ، قد لا يصيب المرءَ مثلها ، ولا يجسر على اقتحام أخطارها ، اذا عَلتْ به السن ، « والذِكرياتُ صَدى السنين الحاكي » كما قال احمد شوقي . والذكرياتُ يُحرَص على تدوينها في الغالب لما تحمل في تضاعيفها من عبر وسلوى .

وهذا تفصيل ما وقع لي عند هزيمتي مرّتين ، من وجه من أراد بي السوءَ من عمال العثمانيين قبل اكثر من ثلاثين سنة ، وهو تدوين لا يخلو فيما أرى من طَرافة وتفكيهٍ .

ولكثرةِ ما انهزمتُ ، ووفقتُ في هزائمي كلها ، فأبنتُ عن مهارة في الهزيمة دعاني بعض الظرفاء « هزيمةً » وأرادني أحد العلماء من المصريين (العلامة احمد زكي باشا رحمه الله) ان أؤسس في القاهرة مدرسة أُعلم بها كيف ينهزم الخائف الذي يترقب ، كما يتعلم الطلبة علوم الدين في الجامع الازهر وعلوم الدنيا في الجامعة المصرية . ولعلي كنت أُجيب الطلب لو طال ذاك الحكم في بلادنا اكثر مما طال .

أقام والي سورية دعوى على جريدتي المقتبس ، واحتال لاقفال الجريدة والمجلة والمطبعة قبل صدورِ الحكم علينا ، وبعث الى مرجعه الأعلى في الاستانة يستأذن في الموافقة على مقترحاته ، فوافقه بلسان البرق على القاء القبض عليّ واقفال الجريدة والمطبعة . وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محلة القيمرية ، كان لأحدهما اتصال بادارة البرق عرف بالأمر فطلب اليّ ان البس ثيابي حالاً وأسير معهما ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فان الشرطة تأتي بعد حين الى داري لتفتشها وتقبض عليّ ، وكان الأمر كما قدّرا ، وسرت معهما وانا لا أعرفهما وغاية ما عرَف أخي أنهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروءة من الشبان ، فبت ليلتي في دار أحدهما وهي دار الشيخ غزال ، وبعد أيام اكرم أهل الدار مثواي فيها انتقلت الى حيّ السوَيقة ، وأويت الى دار صديقي الشيخ عبد الرحيم البابلي يطربني بصوته وانشاده البديع ، ثم عدت الى داري واعددت معدات الرحيل ، وقلت : ما دمت مضطراً الى الاختفاء هنا في البيوت ريثما يُنظر في دَعواي ، وقد يطول النظر فيهـا عمداً ، فالأولى ان اصرِف هـذا الوقت في اوربا ، وكنت منذ سنين أريد الرحيلَ اليها للدرس والبحث فتعوق العوائقُ .

وفي ليل الثلاثين من شهر رمضـان سنة ١٣٢٧ هـ ركبتُ من دمشق يرافقني صديقي السيد شريف تقي الدين ، وكان بطلاً نزّالاً يعرف الطرق والمسالك والمخابئ . ومن قرية القابون مِرْنا قبيل الفجر ، ومنها الى قرى برْزة فمعربا فبسيمة فدَير مقرّن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلتنا الأولى . ومن الغد قصدنا الى سوق وادي بردى فعيتا الفخار فكامدِ اللوز فجبّ جينين فلالا فبعلول ، وفي هذه القرية بتنا الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة بلد المدابغ ، وأنجدنا قاصدين جزّين . وعاد صاحبي الى البلد وسرت وحدي الى تاتِر فعماطور فالمختارة فدير القمر وبتُّ فيها ، ووصلت الى البارُوك مارًّا ببيتِ الدين ، وكفر نبرخ وبت ليلتين في الباروك ومنها سرت الى عين زَحلتا فبت فيها ، ومنها الى حمانا فقرْنايل فصليما وبت فيها ثلاث ليال ، ومنها الى بحنس فبكفيا فبيت شباب ، وقضيت في هذه القرية الكبيرة فيما أذكر ثلاث ليال ثم قصدت الى قرية الشاوية فقضيت فيها نحو عشرة أيام ، واخترت المقامَ في هذه القرية لأكون على مقربة من الفرَيكة بلد الاستاذ امين الريحاني فأقضي معه بعض ساعات النهار ، ومن الشاوية نزلت الى بيروت وبت في دار صديقي احمد إياس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ربما تيسر لي بعد الغروب النزول الى باخرة نمساوية قبيل اقلاعها بقليل .

كان رآني في فندق دير القمر السيد صادق الكسم من تجار دمشق فأنكر عليَّ جرأتي في رحلتي ، وقال لي ان الوالي يفتش عليك في كل مكان ، وكان الوالي عدوي نقل من دمشق الى بيروت ، فالأولى ان ترحل الى مصر براً . فقلت له هذا لا يتيسر الآن فقال : اذاً تأوي الى القرى ، وتتخذ من بيوت العجائز مسكناً ، ولا تنزل في الفنادق ، ولا تجتمع الى الرجال ، وعلى هذا أردتُ النزول في عين زحلتا في دار عجوز ، ولما وقعت عينها علي بكت ، فسألتها ما يبكيك يا أماه ؟ فقالت : كان لي ولد في اميركا مات منذ مدة وليس لي غيره ، وكان يشبهك بالصورة ، فلما رأيتك تذكرته . ثم سألتني عن ديني فقلت لها : برتستانت ، ففرحت ، وقالت : وأنا برتستانت وهذه التوراة ، واشارت الى المنضدة ، والقسُّ يسهر عندنا . فلما سمعت باسم القس خفت ان يجيءَ تلك الليلة وتنكشفَ له حقيقتي .

وكنت قرأت تاريخ الاصلاح الديني ، وعلقت في ذاكرتي شبه البرتستانتية على الكثلكة ، حتى لأستطيع أن أتكلم ساعة في البرتستانتية ولا أعرف ، إلا أن يكون المخاطب قساً مثلاً ، فانه اذا كان ذكياً يتجلى له أمري بعد قليل . فلما قالت المرأة ان القسَّ يجيئها من الليل ، ادعيتُ ان غرفتها لم تعجبني ، واكرمتها ببضعة قروش ، وخرجت الى اسفل القرية فنزلت في الفندق . وكنت صنعت اسماً أردت ان اتسمى به ذاك اليوم ، وهو اسم احد اصحابي المسيحيين بدمشق (خليل العبسي) فلما رآني صاحب الفندق وعرف اني دمشقي قال لي : ان خليل العبسي شريكي في هذا الفندق ، وكان الآن عندي وسافر ، فحمدت الله على اني لم استعر اسمه ، وسألني عن اسمي فاخترت له اسماً آخر من اسماء النصارى ، وأظنه أعفاني من السؤال عن مذهبي .

وفي لبنان لا بدَّ لك ان تبوح بثلاثة وأنفك راغم : مذهبك وذهبك وذهابك ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمور كانت العرب تحرص على كتمانها . واللبناني لتدينه يحاول ان يعرفك بما تدين ، ليزيد أنسه بك وتبسطه معك اذا كنت على مذهبه ، ويريد ان يعرفك اذا كنت (مقرشاً) ام لا ، فان معاملة المومر تختلف عن معاملة المعسر ، ويودُّ ان يطلع على مقامك عنده ليكون على بصيرة فيما يقول لك وما لا يقول . وأنا في تلك الحال لا استطيع ان اقول الا اني برتستانتي ، والحكومة تطاردني ، والوالي غاضب عليَّ ، والأنظار ترمقني . وقد جازت برتستانتيتي على من نزلت عليه ، وهو خوري الشاوية وعلى الخورية امرأته . واتفق ان ابتعت من الطريق عدة كتب من كتب البرتستانت ، فتمت الحيلة على الخوري والخورية عشرة أيام . وكان الخوري يراني اقرأ كتب البرتستانت ، وانا اقصد بالقراءة الا أطيل الحديث معه ، وهو يسألني لماذا يقرأ البرتستانت كثيراً ، فأجيبه لأن رؤساءنا يوصوننا بذلك . واتماماً لما تحيلتُ له كنت اطلب من الخورية ان تأتيني بزجاجة عرق ، وليس من نيتي أن اشرب منها ، فاذا انصرفت عني أخذت قدحين وصببتهما في الحديقة ، لأوهمها اني تناولت من عرقها .

ودعوى البرتستانتية ما نفعتني في «بيت شباب» ذلك ان امين الريحاني قال لي إنه زار حبيس ماربطرس قرب بيت شباب ، وهو يلبس المسوح على عادة قدماء الرهبان ، وأنه كتب فيه مقالة بالانكليزية فقلت له : وأنا اريد أن أزوره واكتب فيه مقالة بالعربية . فقال لي : وانت في اي حال الآن ؟ فقلت له : لا بدَّ من زيارته ، ومن الغد استصحبت ولداً من ابناء القرية يدلني على قلاية الحبيس ، فما إن حييته حتى كان أول سؤال وجهه إليَّ بالطبع سؤالي عن مذهبي . فقلت له : برتستانت ، فصاح : انت هالك ، انت هالك ، وهل انت الذي صبأت عن دينك الأصلي ؟ قلت له : جدي . قال : وهل لك راتب من البرتستانت ؟ قلت لا ، قال : أتعرف القراءة ؟ قلت : قليلاً . قال : اقرأ الكتاب المقدس تعرف ان لوثيروس ما قال بالبرتستانتية الا ليتزوج ، الى غير ذلك مما أفاض فيه . واظن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معلوماته عن النصرانية لا تزيد على معلومات العامة ، وربما كانت معلوماتي يومئذ أرقى من معلوماته .

وكان الحبيس اكرمني بحفنة من التين المجفف فأخذت أتناول منه ، والغلام الذي يرافقني يحدُجني بنظره ، والغالب انهم لا يتناولون منحة القس امامه ويجعلونها للبركة فقط ، كما يتبارك حجاج المسلمين بماء زمزم . وبدأ المطر ينهمر ، فلا والله ما خلصت من عظاته ، وتكفيره لي ، وتخويفي عاقبة أمري ، الا بانقطاعها ، وهرولت أنا ودليلي ، وقد اعطيت الحبيس شبه وعدٍ ان اعود الى قراءة الكتاب ، وارجع الى حجر الكنيسة . وسرَّ دليلي بما سمع من وعظ الحبيس لي . وقال لي ان اعمل بنصيحته حتى أنجو من العذاب يوم الدَّينونة . ثم قال : (يا معلمي ، شفت هذا الحبيس ؟ كان قبل ان ينقطع في صوْمعته يقف ساعة امام المرآة يصفف شعره ويَرْطله ، وكان من شباب البلد ، وخطب ابنة عمه فأبت ان تتزوج به ، ولما امتنعت منه امتناعاً قطع معه أمله ، دخل في الرهبنة) فقلت له : هذا قد يقع فيعشق المرء ويخيب امله في عشقه فلا يجد غير الرهبانية والانقطاع الى الله عزاءً له وسلوى عما شغل قلبه مدة .

صادفت في الباخرة النمساوية التي هربت عليها من بيروت ، صديقي سعاد بك مدير صحة ولاية سورية ، وشقيق حسين جاهد بك رئيس تحرير جريدة « طنين » التركية في الاستانة ، ومن زعماء حزب الاتحاد والترقي ومن اكبر كتاب الترك ، ومعه صديقه صلاح الدين جمجوز بك صاحب جريدة « قره كوز » الهزلية التي تصدر في الاستانة ، ففرح سعاد لتمكني من الهرب ، وسرته نجاتي من الوالي ، وكان من انسبائه الا انه مشهور بكراهته له ، وأحبّ ان يغيظه فقال لي سأكتب اليه : كيف تدعي انك كنت ناظراً للضبطية (مدير الامن العام) لمثل السلطان عبد الحميد ، وهذا عدوّك يمرُّ من تحت لحيتك في بيروت ولا تدري به فأين معرفتك ويقظتك ؟ فرجوته ان يرجئ هذا المزاح والتشفي من نسيبه على حسابي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى مابعد اقلاع السفينة من ميناء يافا ، حتى لا يكون للوالي ولا للدولة العثمانية بجندها وحرابها سلطان عليّ .

وفي هذه الرحلة قضيت في باريز أشهراً حتى برئت ساحتي ، ورجعت الى بلدي عن طريق الاستانة . وكان الداعي الى الرحلة شراً فأنتج خيراً كثيراً .

* * *

أما الهزيمة الثانية فكانت أهم من الأولى لتشعبها وطول الطرق التي سلكتها براً ، ولأني كنت فيها كل ساعة معرّضاً للخطر ، وقد أرسلت حكومة الولاية بصورتي الى جميع المخافر والثكنات والمرافئ في سورية لأُعرف عند رجال الدرك والشرطة فيقبض عليّ حالاً . ونوعت الأساليب حتى أعفي أثري ويغمّ على الوالي أمري ، وأُقنعه بأني خرجت من البلاد فما اقتنع ، حتى ان احد اصدقائي أتاني بورقة من اوراق الرسائل وبغلاف مطبوع عليهما شعار البواخر الفرنسية (الميساجرى ماريتيم) وكتبت كتاباً بالرّيشة الدقيقة يشعر بأني كتبته على ظهر الباخرة ، ووضع في البريد من بيروت باسم أخي حتى ينفس خناقه قليلاً ويكفّ الطلب عني ، فلما ألقي الى الوالي تأمله فقال : الخط خطي ، والورقة المطبوعة ورقة الباخرة ، لكني مابرحت دمشق . وبهذا فقط أثبت انه ناظر ضبطية قديم .

لما فوجئت بهذه الدعوى الجديدة كنت راجعاً من رحلة الى المدينة المنوّرة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً . وكان غرض الوالي من هذه الدعاوي الملفقة اشتغالي بنفسي ، والراحة ، ولو أياماً قليلة ، من نقد صحيفتي . وكان الوالي في هذه المرّة أشد نقمة عليّ من المرات السالفة ، وذلك لاعتصامه بالاتحاديين ، وكانوا أتوا به الى سورية ليعاضدهم في انتخاب اعضاء مجلس النواب ، فعمل بما ارادوا ، مع انه ما كان من حزبهم ولن يكون ، فرأى بذلك الفرصة سانحة للقضاء عليّ آخر الدهر . ولما فررت أشاع في جماعة الشرطة والدرك ان كلّ من يأتي بي اليه حياً او ميتاً يُرقيه من جندي عادي الى رتبة « بوزباشي » مباشرة ، عدا ما يعطاه من مكافأة نقدية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كنت قادماً بعد العصر الى ادارة الجريدة ، فرأيت مرية من الجند تحيط بها ، فغمزني أحد شبان حي سوق ساروجا ان ارجع ، و كنت على بضع خطوات من الباب فرجعت وتبعني فقال لي : إن اخاك قبضوا عليه الساعة ، وهم في تفتيش الادارة . ولما رجعت الى داري وقع في قلبي ان القوة المسلحة لا تلبث ان تأتي للقبض عليّ . و كان الأمر كما حسبت ، فخرجت من داري سائراً على قدمي بين الحدائق لا ألوي على شيء ، ومعي السيد حكمة العسلي ، وانا افكر كيف اقطع نهر يزيد الحائل بيني وبين الجبل ، وكان الوقت ربيعاً ، والانهار طافحة بالمياه ، فطلبت الى فلاح هناك ان يجتاز بي النهر فمشى الى مجاز يعرفه ، وما كان اكثر تعجبه ان رأى شجرة صفصاف كبيرة قلعت من جذعها وأسندت على شاطئي النهر ، كأنها جسر وُضع لأعبر عليه ، ومررت قليلاً حتى بلغت قبة السيار ، ومنها سقطت الى دمر اقصد بيت صديقي الامير عمر الحسني ، و كان حانقاً عليّ لأني كتبت ، او كتبت الجريدة ، تعريضاً بأخيه الامير عبد الله باشا لما قام بدعوة الجمعية المحمدية هو والسيد عبد القادر العجلاني في دمشق ، وكانت قامت هذه الجمعية بايعاز السلطان عبد الحميد ، لقلب النظام الدستوري ، وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي ، وسيق القائمان بها الى الاستانة للمحاكمة وبعد جهد جهيد كتبت لهما النجاة من القتل .

قصدتُ دار الأمير عمر لأنه افرنسي التبعة ، ومن المتعذر تفتيش داره ، ومع هذا احتاط وخبأني ثلاثة أيام في دار بعيدة عن داره . وفي اليوم الرابع ركبنا مع الامير طاهر ابن اخي الامير عمر من وراء جبال دُمر فبلغنا المزّة وفي تلك الليلة بحثت الحكومة عني في قرية المزة ، و كبست في صالحية دمشق دار صديقي عبد القادر بك المؤيد ، ولم نقف في المزّة بل اجتزنا ارضها فقط ومنها سرنا الى قرية بلاس وهي مزرعة الامراء آل الامير عبد القادر ، فنزلت في دار الامير محمد ابن السيد محي الدين ، وامه ابنة الامير عبد القادر الكبير ، فقضيت عنده أياماً على غاية من الهناء والطمأنينة ، حتى ابتاع لي الامير طاهر ثياباً بعضها من سوق الخلق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كالمعطف والعباءة ، وهذه اول مرة لبست بها في حياتي ثياب غيري ، ولا سيما مثل هذه الثياب الوسخة ، وقد تكون موبوءة ، وذلك لينطلي امري على من يراني ، وكنت اطلقت لحيتي من يوم استترت ، وشعثت هندامي حتى أشبهت صورتي بعض سكان الحاضر في حماة . وكان جاءني احد اصدقائي عبد القادر آغا سكر من اعيان حي الميدان وابطال الرجال يريد ان يصحبني الى مصر فظننته هازلاً فاذا هو يجدُّ ، ورجع بعد ايام يركب حصانه ، وقد ابتعت حصاناً يحملني معه ، وفي الساعة التي كانت النار تلتهم سوق الحميدية بدمشق ، والحكومة والناس مشتغلون باطفائها قال الوالي : الآن يفرُّ صاحب المقتبس مغتنماً فرصة اشتغالنا بهذه الفادحة ، فأمسكت عليَّ محطات السكك الحديدية كلها ، وفاته ان لدمشق عشرات من المنافذ وان من اتهم تهمتي لا يهرب من طريق السكة الحديدية ما دامت الأرض واسعة . ومرنا عصر ذاك اليوم من بلاس حافظاً لصديقي الأمير محمد اجمل ذكرى ، وقد كتم وجودي في بيته حتى عن اهله وانسبائه ، ومنهم من كان يكرهني ، وربما كان يتقرب من العثمانيين بدلالتهم على مخبئي .

* * *

سلكنا سبيلاً معوَجاً من اول مرحلة رحلناها من حوْش بلاس ، فاجتزنا ارض المزة وبلاس والاشرفية وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب من قرى وادي العجم فدَير العدس فالحارة من اقليم الجيدور حتى النقرة من اقليم الجوْلان ، وانتهينا عصر اليوم التالي الى نهر الرَّقاد ، ولم نُهوِّم في الطريق الا دقائق قليلة ، لأن صاحبي كان يوجس خيفة من ان يعرف بالامر أحد من اصحاب الحكومة فيلحق بنا الجند ، وكنا رأينا في الليل ، والقمر ليلة البدر ، بضعة انفار من الدرك فوقفنا عليهم وشربنا ماءً ، وكلمهم صاحبي بلهجة مغربية فعرفوا اننا مغاربة (وسأل أحدهم في عودته عن سبب مرابطتهم هناك ، فقالوا : (ان صاحب المقتبس سيمر من هذه الأرجاء وقد امرتنا الولاية بالقبض عليه)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتعرّف صاحبي عبد القادر آغا في الجولان الى رجل نجدي اسمه عبد العزيز المحيسنيّ يقود الى مصر مع ستة من الرعاة سبعة وسبعين جملاً ، هي ملك احد اصدقائي الحاج ياسين دياب من تجار دمشق . فذكر عبد القادر آغا للمحيسنيّ ما وقع لي وما يتوقع من شرّ يصيبني اذا سقطت في يد أحد رجال الحكومة ، وانه رافقني حتى يبلغني مأمني ، فقال انه سمع بقصتي في دمشق . ومما قال له صديقي انك اذا اخذته تحسن لأهل دمشق ، وهو يحمل دراهم يعطيك بقدر ما تحب . فأجابه : تقول لي انك تحسن لأهل دمشق اذا هرّبته ونجا بروحه ، وتعرض عليّ ان آخذ منه اجرةً ، ومتى كان العربيُّ يأخذ أجراً على المعروف .

وعاد صاحبي عبد القادر آغا سكر الى دمشق وسرت على بركة الله مع جمال النجديين ، فقطعنا سهل الجوْلان وبتنا تلك الليلة دون عقبة فِيق . واقترب مني ساعة نزولي فارس من خفراء شركة الدخان ، يحادثني ويتحبب اليّ ، فأزعجني بكلامه ، ولاحظ أني متعب كثيراً فقال لي : مالك وللجمال تتجر بها — ورُعاة الجمال يوهمون كل انسان اني انا صاحبها — لو فتحت لك دكاناً في سوق باب البريد ببلدك لعشت في نعيم ؛ وخلصت من هذا الشقاء ؛ ومن قطع الصحاري والبراري ؛ فتثاءبت وتناومت . فقال لرفاقي : « انه تعبان المسكين » وتركني وانصرف

ومن الغد هبطنا العقبة فأشرفنا على اراضي غوْر بيسان وبحيرة طبرية ونهر الأردنّ (الشريعة) فاجتزنا الجسر القديم المتداعي سباحةً على الدواب ؛ ثم توقلنا الجبل الى موقع الدّلايكة ؛ وهو بين جبلين منفرجين متآزبين ، وبتنا ليلتنا في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة . وفي اليوم الرابع دخلنا في غابة عظيمة من شجر البطم نحو ساعتين ؛ فبلغنا قرية دبورية ؛ وفي منقطع ارض هذه الدسكرة يبتدئ مرج ابن عامر (سهل يَزْرَعيل) فقطعناه عرضاً في اربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ؛ ومنها الى وادي عارَة ؛ وطوله ثلاث ساعات ؛ وهو ضيق متوازي الأضلاع . وبتنا الليلة الخامسة في عيون الأساور على ساعتين من قيسارية ؛ واجتزنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في اليوم السادس بقرى نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة فبلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا ٠

وحدثني من اثق به بعد مدة ؛ أن جماعة من اعيان نابلس وشبانها المثقفين ؛ ومعظم شبانها مثقف ؛ استصرخوا قرى نابلس التي يلاحظ اني اجتاز بها ؛ وطلبوا الى بعض سكانها اذا رأوني ان يحملوني الى مكان بعيد ؛ ويكرموا مثواي ؛ ويبعدوني عن انظار كل من له علاقة بالحكومة ؛ فكان اهل القرية من القرى المستصرخة ينتدبون أناساً من شجعانهم واصحاب المروءات منهم يقفون على الطرق في الليل والنهار ، لينقذوني من مخالب الظالمين ٠ وباتوا بها يترصدون المعابر والمسالك أياماً وليالي حتى قرأوا في الصحف المصرية أني بلغت مصر ٠ وهذه مروءة عربية استرق بها النابلسيون قلبي ما دمت حياً ٠

وفي اليوم السابع اجتزنا قرى الساحل مثل جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بير هديد ؛ غزة ٠ ورأينا بعض المستعمرات اليهودية الزاهرة بالعمل والانتاج ٠ وقضينا الليل في دير البلح ٠ وفي اليوم الثامن دخلنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة ، وبعد مسيرة ست ساعات بلغنا محطة رفح أول حدود مصر والشام ٠ وفي اليوم التاسع دخلنا في رمال خمسة أيام حتى قالت الاسماعيلية : ها أناذه ٠ وكنا نسير في هذه الجفار على مقربة من البحر لا نبعد عنه كثيراً ، والرمال لا يتبدل شكلها ٠

ذكرت هذه المراحل لأني قطعتها على راحلتي وما كنت لأقطعها لو خيرت ٠ وقد استفدت من هذه الرحلة فائدة جغرافية وطوبوغرافية لا تقدر ٠ وما كان يومئذ خط حديدي يصل بين آسيا وإفريقية او بين دمشق والقاهرة ، ولا طرق معبدة تسلكها السيارات ٠ وقصدت بتقييدي هذا تسجيل ظاهرة غريبة ، أو بدع قديم بطل ، وذكرى أيام قضيتها في عالم الأباعر فاستحليتها وهي مرة ٠

* * *

قلت في محاضرة ألقيتها في الاسبوع الذي بلغت فيه القاهرة ، في فندق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ادن پالاس ، اجابة لمقترح جماعة من السوريين ، بعد ان عددت ما وقع لي منذ خرجت من بلدي الى ان دخلت الاسماعيلية ، وألممت بتاريخ ذاك الطريق الذي كان من اعمر الطرق منذ كان الاسلام : وكأن رحلتي في الشهر الماضي الى الحجاز وجنوبي الشام ونزولي على اهل البادية من اهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مؤاكلة الاعراب في صحفة واحدة وفقدان الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والاكل من طعامهم ثمن العراق والبرغل جريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة او على الساج يسجر ببعر الأباعر ، والرمال تسفو فتدخل كل ما يعمل هناك من خبز وأدم ، ومأكول ومشروب ومطبوخ ومسلوق ومقلي ومعجون .

ولقد حملوا لي الماء في قربة فما هي الا ساعات حتى تغير منه الطعم واللون والرائحة ، وبقيت خمسة أيام أُسقى من هذا الماء وأعده نعمة بالقياس الى مياه الجفار البشعة المهوّعة ، وهي بعض ماء البحر روّقتها الرمال قليلاً . وأذكر ان « خَوي » المحيسني ناداني مرة ، وجمالنا مسرعة في طريقها ، وحاديها يحدو لها بصوت يذكر بنجد واهل نجد ، فالتحقت به مسرعاً ، وما انحرفنا دقائق عن قارعة الطريق حتى كنا وسط فريق من العرب فاستسقى فأتوه « بذُكرة » شرب منها واعطاني فاذا بها لبن رائب ثم أرادني ان اشرب وأشرب ، وأردت ان اعطيهم شيئاً فأشار اليّ ألا أفعل . وكنت اتمنى شربة واحدة من هذا اللبن كل يوم وادفع فيها جنيهاً وأنا غير مغبون . وكنا مرّة نزولاً على بئر أنشئ على عهد الخديوي عباس الثاني ، وعليه زُبر اسمه فأتاني وليد بمقطف من الطماطم (البندورة) الصغيرة فأحببت ان أعطيه ريالاً فصرخ خَوي « بشلك » ثم قال لي : اذا توسعت في اكرام البدو هذا التوسع تضرُّ بنا لأنا لا نزال نجتاز بهم طول السنة فاذا تعودوا على الكثير نضطر ان نعطي كل مرة كما اعطيت فلا يستقيم لنا بعد ذلك حال معهم .

وكنت في الليلة التي نجتاز في صباحها برفح آخر الحدود العثمانية المصرية قلقاً جداً ، وقضيت ليلي وانا في هواجس أُدبر وأُقدر . ومررت قبيل الفجر أمام قطار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجمال وأنا أقول في نفسي: الآن فصل الخطاب فاما ان ادخل ارض مصر ناجياً من العثمانيين ممتعاً بالنعيم بعد هذا الشقاء، أو اعود أدراجي وانا في قبضة الترك الى مُطبق من مطابقهم، ألقى ما ألقى من معاملتهم الجائرة. وبعد خمس ساعات سألت المحيسني متى نبلغ رفح فقال: قطعناها منذ كذا ساعة ودفعنا عنك للجندي ثمن علبة دخان لما اعترضنا قائلاً ان اخراج الخيل من الأرض العثمانية ممنوع فأقنعناه بأن هذا حصان صاحب الجمال الذي تراه. فأخذ «البشلك» وهي قطعة تساوي قرشين، ولم يمسسنا بسوء ولم يحقق من امرنا غير ما رأى.

وسعدت في هذه الرحلة ان رأيت بين الشام ومصر صورة مصغرة من عيش اهل جزيرة العرب، وذلك بالاختلاط مع تجار الجمال ورعاتها، وكلهم نجديون لا يعرفون الفضول، وما رأيت أحداً سأل خويي عبد العزيز عني بالإشارة ولا بالعبارة، وكانوا في كل مساء وصباح يختلفون الينا ونختلف اليهم ونشرب القهوة معاً وحديثهم في البعير وسوقه ورعيته وثمنه ورواجه وكساده. ولم اسمع في اربعة عشر يوماً بلياليها كلمة هُجر وبذاء ولا تجديفاً ولا لعناً ولا نميمة ولا غيبة ولا كذباً ولا منكراً. وكان أولئك الأعراب بأجمعهم مواظبين على صلواتهم، يتيممون بالرمل اذا اعوزهم الماء ولا يسرفون فيه اذا وجد. وأنست بلهجتهم وفيها كثير من الفصح ولها رنة تطربك.

نزلت في الخيام في الشهر الذي وقع قبل هذه الرحلة ثلاث ليال في أرض ابل على شيخ من عرب الشرور اسمه محمد ابراهيم، وأخرى في بير البيطار على محمد ابي الفرج شيخ بني عطا، وهذان المنزلان على مقربة من وادي موسى، وبت ليلة في الزيزاء (الزيزة) عند صديقي فواز بن سطام شيخ مشايخ بني صخر فرأيت العيش البدوي على اختلاف درجاته، وكان العيش في الليلتين اللتين قضيتهما في بلاد الشراة «ديمقراطياً» وفي ارض البلقاء «ارستقراطياً» نمنا فيها على فرش الحرير محشوة بريش النعام، وشربنا في الصبح لبن النياق.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سألني احد الأعراب اي العيش افضل لنا نحن البدو : الحضارة ام البداوة ؟ فقلت له : ابقوا على بداوتكم واقتربوا من المدنية ما سمحت لكم حالتكم واياكم ان تغفلوا عن تعليم اولادكم . واني أخاف اذا عاشرتم الحضر فأكثرتم من عشرتهم ان يختلط عليكم امركم وتخرجوا عن فطرتكم واخلاقكم الى ماتئن منه حضارتنا من النفاق والكذب والتزوير والخديعة . ولولا الغارات المتواترة عندكم لآثرت ان اعيش في هذه الديارات بين البوادي ولو اشهراً في السنة .

زرت في تلك الرحلة عمان والصلت والكرك ومادبا ومؤتة ، وجئت معان فقصدت الى متصرف الكرك صاحبي القديم حليم بك ابو شعر وطلبت منه ان يُصحبني بدركي لزيارة وادي موسى فنادى دَرَكياً واسرّ اليه شيئاً في أذنه واظنه قال له ان ينتبه لحديثي مع البدو وان يجيئه بخبري كله . وشكرتُ له لأنه لم يقل له جئني برأسه ، ولو فعل لجلب السرور الى قلوب الاتحاديين ، القابضين على زمام المملكة يومئذ ، ولرقيت درجته في ذاك الاسبوع الى والٍ . وانتهى بنا السير قبيل الغروب الى عين ماء عذبة على خمس ساعات من معان فقلت للدركي : نتعشى هنا ، فاستنكر ذلك وقال : وهل يمكن هذا وبعد ساعة نصير الى قبيل العرب فيذبحون لنا ؟ فأقنعته بأن نأكل من زادنا لأني لا أريد ان اشق على الفقراء فنزل واكلنا .

وفي العشاء كنا نزولاً على العربان فما ان ترجلنا حتى سمعت صوت « المهباج » لعمل القهوة وأصواتاً أخرى تنبئ بأن الخروف يذبح . فقلت للدركي : قل لهم انا تعشينا ، فقال : هذا كلام لا يسمع ، دع هؤلاء الذين تراهم من الصبيان والشبان والرجال يأكلون الليلة على جرايرك (بسببك) فانهم ينتظرون قدوم الضيف على شيخهم حتى يذبح له فيأكلون الفضلات . وانتظرنا ساعتين فخرج الخروف في قصعة صغيرة وجعلت تحته رقاق من الخبز لتت بالمرق فأصبنا منه قليلاً ارضاء لهم ، وكنا نراهم ، والقريب من القصعة يتبعض للبعيد عنها ، فتسافر قطع اللحم من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فوق رؤوسنا وتتعاور العظامَ ايدي البدو فأسمعهم وهم يعرقونها بأسنانهم كما يعرق الكلاب العظم . وخمنت من تناولوا من الخروف تلك العشية بنحو خمسين نسمة ، ولو لم نجئهم لباتوا على الطوى . ولو قدرت اننا سننزل على مثل هؤلاء الأعراب يكرموننا هذا الاكرام على فقرهم لحملت اليهم من معان على الأقل بعض الثياب اكسو بها بعض ابنائهم وبناتهم لأنهم كانوا اشبه بعراة .

وأعظم ما ملأ نفسي سروراً في رحلتي الى المدينة المنوَّرة ان رأيت العمران بدأ يسري بفضل السكة الحجازية ، الى بعض المحطات ، وأخذت المدنية تدخل في تلك القفار ويجري الانتفاع بالمياه المخزونة في بعض الأودية في ارواء الأرض ، فأنشئت الحقول والحدائق بعد بلدة معان ، وبدأ الأعراب هناك يتذوقون طعم السكنى ، ويتعهدون الزرع والشجر ، ولو ظلّ استثمار الخط الى اليوم لرأيت قرىً قامت على جانبي هذا الطريق الطويل وصار للبادية ما تتبلغ به وتعيش واقامت بعد الديار الشامية حتى مدينة الرسول « هجرات » على النحو الذي قامت في بلاد نجد بفضل الملك عبد العزيز آل سعود فأغنى اهلها عن الغارة ، وعلمهم الحرث والكرث ، وحضرهم وحبب اليهم عيش المدَر بعد عيش اهل الوبر .

ولاحظت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ان جميع العناصر الاسلامية تدخل بخشوع وادب لا يكونان في أبناء العرب ، فهؤلاء يضطجعون ويأخذون حريتهم ، ويلقون بنعالهم كيف اتفق ، مما لا يصدر مثله من الهنود والأفغان والجاويين والايرانيين والقوقازيين والسودانيين والاتراك ، كأن ابناء العرب يرون أن صاحب هذا القبر الشريف هو بعض ابناء عمهم او احد إخوتهم ترتفع بينهما الكلفة على ما هو الحال بين ابناء أسرة واحدة .

وتسألني وقد أتعبتك بما قصصت عليك ، وأنت هل تعبت بقطع هذه المسافات التي قطعتها راكباً حتى بلغت مصر ، فأقول لك ان ربك يبتلي عبادَه ويُعينهم . كنت اذا ركبت دابتي الى قربي ثلاثة ارباع الساعة أضطجع اذا نزلت عنها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ساعة او ساعتين للاستجمام ، ولم تنقص اقل مرحلة قطعناهـا هذه المرة عن اثنتي عشرة ساعة ، وكثيراً ما كنا نسير ثماني عشرة ساعة في اليوم ، وسرنا في اليوم الاول اربعاً وعشرين ساعة متتابعة ، فكانت مرحلتنا الأولى كسائر المراحل غير شاقة ، وما أحسست بتعب يذكر ، وقد نكتفي بنوم ثلاث ساعات ننشط عقبهـا للركوب كأننا نمنا ثماني ساعات على فراش وثير ، ذلك لأن نومنا كان بالعراء على الأرض بعيدين عن المستنقعات والقاذورات . وكنت أنشط اليوم بعد اليوم وآلف هذا العيش لا اتبرم به كثيراً لأنه جديد بالنسبة لابن المدن والرفاهية .

ولما بلغت بعد ظهر اليوم الاخير من هريمتي الثانية مدينة القاهرة قصدت الى « اسبلنديد بار » تواً ولم أكن احمل معي شيئاً الا ما عليّ من ثياب وسخـة . فكان كلما جاء واحد من أصحابي الصحافيين يعمى عليه امري ، حتى اتكلم واضحك ، أو يذكر له من سبقه اسمي الصريح ، وتجمع عليّ منهم بعد ساعتين عشرات شغلنـا نصف البراني من القهوة ، والانظار تحدجنا ، والطليان ينظرون الينا شزراً ، وكان مقهاهم وراء مقهانا ، ولعلهم ظنوني بعض أولئك الأعراب الفارين من ليبيا ، وكانت الحرب يومئذ على ساق وقدم بينهم وبين جيوش العثمانيين . واخذني حقي بك العظم فصورني بذاك الهندام العجيب ، وساقني رفيق بك العظم امامه الى داره ، فقلت له : انزل في الفندق ، فقال : ما من فندق في القاهرة يقبلك وانت على هذه الوساخة . ومن الغد خلعت حلتي ، وحلقت لحيتي ، وعدت الى قيافتي . وعندهـا بدأ التعب يدب في جسمي ، ولم ترجع اليّ قواي الا بعد نحو اسبوعين ، وحمدت الله على السلامة ، وأنشدت مع من أنشد « أنت يا مصر ملجأ الأحرار »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net